الديموقراطيّة المفقودة

● الديموقراطية الحديثة كلمة جوفاء ، حشوها هواء ومبادئها هواء ، اما ديموقراطيـــة الاسلام فسلوك انساني رفيع ، يرتكز الى انبل ما في النفس الانسانية من نزعـات ، انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

● تعالوا نتتبع ديموقراطية فرنسا .. ام الحريات ، ونتفحص سلوكها تجاه الشعوب لنلمس الخدعة الكبرى التي اختبأت وراء البرقع الحريري الرائع ، انها تتغزل بالحريات وكرامة الانسان ثم تنكفىء لتنكل بالحريات ولتنتهك — بكل استخفاف — كرامة الانسان .

● تعالوا نبحث عن امثلة من ديموقراطية بريطانيا ، والولايات المتحدة ، بـــين مليون متشرد عربي ارادت لهم ديموقراطية الانكليز والامريكان ان يموتوا جوعـاً وبؤساً وعرياً ؛ ارضاء لحفنة من المرابين .

انا نظلم « الديموقراطية » حين ننسبها ظلماً وعدواناً الى المتآمرين على الشعوب ، الذين يتاجرون بالمبادىء ، ويدنسون طهارة المثل .

لقد كثر الحديث ، في عصرنا عن الديموقراطية ، وكثر المتشدقون بهذه الكلمة ومن واجبنا اليوم ان نميط اللثام ، عن وجه اولئك المتشدقين ، وأن نبين للناس الفوارق بين ديموقراطية مزعومة ، وبين ديموقراطية صحيحة ، هي ديموقراطيـــة الاسلام ، ذلـــك الدين الذي اراده الله نظـــاماً للحياة المثلى ، ومطهراً للنفس الانسانية من ادرانها وشوائبها .

إن الرجعة العابرة الى التاريخ الاسلامي ، تظهر تلك الفوارق بوضوح وجلاء فالديموقراطية الحديثة كلمة جوفاء، حشوها هواء ، ومبادئها هراء ، اماديموقراطية الاسلام فسلوك إنساني رفيع يرتكز الى انبل ما في النفس الانسانية من نزعات ،انه يقوم على دعائم الحق والحرية والعدل والمساواة .

فأين ديموقراطية اليوم من ديموقراطية ابن عبد الله ؟ ذلك اليتيم الأميّ الذي نبتته الصحراءوهيأته الاقدار لانقاذ العرب من ظلمات الجهل والفوضى والضغينة .

ديموقراطية محمد :

لقد استطاع محمد ﷺ ان يسحر قريشاً ، بعد ما ارغمته هي على ان يخوض معها معركة حياة او موت ، استطاع ان ينتصر على عنجهيتها باتباعه القلائل الذين لا سلاح لهم : إلا الايمان بالله ، والتضحية بكل شيء في سبيل العقيدة ، فماذا فعـــل محمد بقريش التي عذبته وآذته وأدمت قدميه ، ورجمه سفهاؤها في الامس القريب ، بالحجارة ؟

أتراه سيتيح للسيوف العطشى أن ترتوي من دمائهم ؟

اتراه سينتقم للضحايا التي ارداها الظلم والتعذيب ؟

اتراه سينسى كيف ارغموه واتباعه على الهجرة مرتين ، وكيف حاصروه في الشعب حتى اضطر هو وهؤلاء الاتباع ان يأكلوا العشب ويتغذوا باوراق الشجر !

كلا ان محمداً لم يبعث ليؤجج نار الضغينة . ولم يرسل ليعطي الاماثيل في الانتقام والثأر ؛ لذلك وقف بين الكفار من قومه وكلهم مطرق امام الفاتح المنتصر وقف ليسألهم : ما ترون اني فاعل بكم ؟

ولا حظ ابن عبد الله ان بعضهم يرتعد فزعاً ، وقرأ في عيون الكثيرين منهم انهم يتوقعون منه ان ينزل بهم شد العذاب والتنكيل جزاء ما قدموا ، فاحب ان يحقق قول الله فيه : وانك لعلى خلق عظيم .

لقد قال لقومه الذين عذبوه وعذبوا اتباعه ما لم يقله فاتح في التاريخ لأعدائه ، قال لهم : اذهبوا فانتم الطلقاء .

وذهب الطلقاء مشدوهين ، وادركوا عندئذ ان رسالة محمد هي رسالة الحق والخير والمحبة والسماح .

واليكم قرائي الاعزاء جانباً آخر من ديموقراطية محمد ﷺ :

ان الرسول العظيم الذي سيطر على جزيرة العرب لم يداخله الكبر يوماً . ومعاذ الله ان يداخله شيء من هذا ، لقد كان باستطاعته ان ينعم من الدنيا بما يشاء وتشتهي نفسه . كان باستطاعته ان يحيا حياة الملوك والقياصرة . كان بامكانه ان يتمتع بموارد الدولة التي اقامها بجهاده ونضاله . ولكن معاذ الله ان يزل محمد أو يتبدل ، فلقد ظل وهو الرسول العظيم وسيد قريش وزعيمها السياسي الاكبر ، ظل يخصف نعله ويحلب شاته ويرقع ثوبه ، ويحيا حياة المتقشفين الزاهدين لأنه يعرف تمام المعرفة انه المثل الاعلى للرعية ، وان المثل يجب ان يظل على سموه ليظل مثلا اعلى .

ليسمع عظماء اليوم :

قد يقول قائل : تحدثنا عن ديموقراطية محمد ، ومحمد نبي حلاه الله باخلاق الانبياء ، فلا يمكن ان يصدر عنه الا ما هو خير وحق وعدل ، فدلنا على الديموقراطية عند اتباع محمد .

اجل قرائي الاعزاء ان محمداً نبي بعث ليتمم مكارم الاخلاق ، فتعالوا معي الى فرائد التاريخ الاسلامي وكنوزه ، نستخلص منها الشواهد على ديموقراطية المؤمنين بمحمد .

لقد انتقلت اعباء القيادة الدينية والزمنية بعد وفاة الرسول الى ابي بكر الصديق ، فأنفذ اسامة بن زيد على رأس جيش الى الشام ، وزوّده بهذه الوصية التي يجب ان تكون دستوراً للناس في القرن العشرين : قال ابو بكر لجنود اسامة :

« لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تغدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لمأكله ، وسوف تمرون باقوام حبسوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا انفسهم له » .

الا فليسمع جزارو القرن العشرين ، ليسمع اولئك الذين ازهقوا مئتي الف نفس بشرية بريئة بقنبلة ذرية واحدة ، محت من الدنيا مدينة « هيروشيما » .

ليسمع اولئك الذين لا يرحمون طفلا ولا شيخاً ، ولا امرأة .. في المغرب العربي

ليسمع اولئك الذين اتخذوا الغدر ديدنا وخطة .

ليسمع اولئك الذين يرون النصر كل النصر في احراق الارض وما عليها .

وتدمير ما اقامه جهد الانسان فوقها .

ليسمع اولئك الذين تلعنهم كل شجرة مثمرة قطعوها، وكل روح دابة ازهقوها

ليسمعوا وليتلمذوا على الاسلام .. الذي اراد ان يحفظ للانسان كرامته حتى في ساحات الحروب .

صفحة ناصعة :

لنقلب صفحة ثانية من صفحات تاريخنا .. فهذا عمر بن الخطاب يتولى شؤون المسلمين ، فيشعر منذ اللحظة الاولى التي تنتقل اليه فيها اعباء القيادة ، بثقل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، فيصمم ان يرضي الله ورسوله وضميره والشعب .

ولكي نصوّر ديموقراطية ابن الخطاب نحب ان نذكر هذه الحادثة البسيطة التي تحمل في مطاويها اعمق معاني الديموقراطية واسمى مظاهر الانسانية :

لقد كان عادة هذا الخليفة العظيم ان يتفقد احوال الرعية متنكراً متستراً بظلام الليل وصدف ان سمع في احدى جولاته الليلية صبية يبكون ، فاحب ان يستطلع الامر ، وسرعان ما توضحت له خطوط المأساة .

لقد رأى عجوزاً تضع قدرها على النار ، وصبيتها من حولها يضجون . انهم جياع يقض الطوى مضاجعهم ، وليس في الكوخ ما يسد الرمق ، وليس باستطاعة العجوز المسكينة ان تتغلب على البؤس الذي يصارعها ويصارع صغارها ، فلجأت الى الحيلة تخدع بها الصبية دون ان يتاح لها ان تخدع الجوع .

ووضعت على النار قدراً وملأته ماء وتركته يغلي . وكانت كلما الحّ صغارها في البكاء تسرف في تهدئتهم ، وإيهامهم ان الطعام المؤمل قارب ان ينضج ، علهم يلتهون بالوعد عما هم فيه فيناموا .

رأى الخليفة هذه المأساة الحية ، ففاضت عيناه بالدموع ، وسارع الى بيت المال فحمل على ظهره كيساً من الدقيق ، وقصد بيت العجوز التي تخدع صبيتها ، فقرع بابها والقى الكيس بين يديها ، ثم باشر في اعداد الطعام لصغارها . وكان كلما خبت النار أو كادت ، ينحني عليها لينفخ فيها ، فيتطاير رمادها الأغبر ، ليتخلل لحيته ، ويملأ عينيه ، حتى اذا نضج الطعام وأكل الصبية استراح ضمير عمر .

... هل في تاريخ الامم التي تتشدق اليوم بالديموقراطية أمثولة كأمثولة عمر .

امثولة رائعة

وما دمنا نتحدث عن الديموقراطية .. فإليكم أيضاً هذه القصة التي يرويها التاريخ باعتزاز عن ابن الخطاب .

اعتلى عمر المنبر مرة ليخطب الناس فقال : ايها الناس اسمعوا وأطيعوا . فانتصب من بين المصلين بدوي رث الهيئة زري المنظر ، وجابه خليفة المسلمين قائلا : لا سمعاً ولا طاعة يا عمر .

وثارت ثائرة المصلين ووثبوا الى البدوي الجلف يريدون ان يحسنوا تأديبه ، وان يعلموه كيف يخاطب امير المؤمنين . ولكن ابن الخطاب يصيح بهم : دعوه !

... وهدأت الخرخاء ، وبقي بريق العيون الغاضبة الحانقة ينصب مخيفاً مرعباً على رأس البدوي .

وسأل عمر البدوي المتمرد الذي لا يريد ان يسمع ، ولا يريد ان يطيع ، سأله برفق : ولم يا اخا العرب ؟

وارتفع صوت البدوي متهماً ، قال للخليفة ما معناه : لقد زعتم الحبرات اليمانية التي غنمناها فأصاب المحارب منا حبرة من هذه الحبرات ، وقد حاولت وانا

المتوسط القامة ان اجعل منها ثوبا لي فلم تكفني ، وها انذا اراك وانت الرجل الطويل الفارع ، ترفل بثوب من تلك الحبرات .

وسكت البدوي ... وظل صدى صوته يصفع ابن الخطاب بهذا السؤال : من اين لك هذا ؟ من اين .. يا عمر ؟

ومرة ثانية يثور الضجيج . فالبدوي الوقح يتهم امير المؤمنين ، يتهمه بالاثرة والتوسيع على نفسه من مال الامة . يتهمه بأنه يأخذ من الغنائم اكثر مما يأخذ المجاهدون .

ومرة ثانية يبدىء ابن الخطاب من ثورة الغاضبين ، ويبتسم للاتهام الخطير ، ابتسام الواثق من البراءة ثم يلتفت الى ابنه عبدالله قائلا :

اجبه يا عبدالله !

ويقف ابن الخليفة ليعلن على الناس كيف لبس امير المؤمنين ثوبا من الحبرات اليمانية التي لاتكاد الواحدة منها تكفي لثوب رجل واحد ، واوضح لهم انه تنازل عن نصيبه من الغنيمة لوالده فجعل من الحبرتين معا ثوبا له .

واقتنع الاعرابي المتشكك بعدالة الخليفة ، وادرك انه اسرف في سوء الظن ، فاغرورقت عيناه ، ووقف وهو يحبس الدمعة بين اجفانه ، ويقول بإجلال واكبار : الآن سمعا وطاعة يا امير المؤمنين :

اختيار الحكام :

وكان عمر اذا استعمل الولاة على الامصار ، يقول لهم : اني لم استعملكم على امة محمد ولا على اشعارهم ولا على ابشارهم ، وانما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة ، وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل ، فإذا خالف الامير

الوصية ، فشتم احداً من الرعية ، او ضربه ، او حابى احداً في العطاء ، او صانع احداً في القضاء ، او احتجب عن الناس وتهـــاون في خدمتهم ، كان لعمر معه موقف ينتهي دائماً الى الاقتصاص للرعية من الامـــير او مصادرته او عزله ، او الى هذا كله .

والواقع ان اكثر العمال الذين عزلهم عمر إنما عزلهم لخيانتهم في الاموال العامة ، او لاستطالتهم على الرعية ، او لعجزهم عن خدمة الشعب ، ولكنه لم يعزل عاملا لمجرد ان اجتهاده في الامور مخالف لاجتهاد عمر ، وإنما كان يراقب عماله ، وينصحهم احياناً ، ويأمرهم احيانا ، لقد كان عمر « محكمة تمييز » بالنسبة لهم ... لا تمنع الاجتهاد ولكنها تمنع سوء الاجتهاد ، ومن الحق ان نقول ان مراقبته لعماله كانت شديدة الوطأة ، وكان يتدخل في كل كبيرة وصغيرة ، لانه كان يعد نفسه مسؤولا عن عماله متحملاً لأوزارهم .

فقد كان يجمعهم في موسم الحج ، ليحاسبهم ولينظر فيما عملوه طول السنة . وليصغي الى شكاوي الرعية منهم ، وكان اذا ثبت له ان الامـــير ضرب احداً من الناس ، اعطى المضروب درّته وقال لهم : هلم اقتص من الامير .

وكان إذا بعث بعامل يشترط عليه ان لا يركب برذونا ، ولا يلبس رقيقـــا ، ولا يأكل نقيا ، ولا يتخذ حاجبا .

وقد بلغه مرة ان عامله على البصرة خالف هذه الوصية ، فكتب اليه : بلغني انه فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ، ومطعمك ومركبك ، ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبدالله ان تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب ، فلم يكن لهـــا همٌ إلا السمن وانما حتفها في سمنها .

محاسبة الولاة :

وأخبر ان عامله على مصر يلبس الرقيق ، ويتخذ الحاجب ، فأمره عمر بالقدوم فقدم عليه ، فلما رآه قال : إنزع قميصك ، ودعا بمدرعة صوف ، وبربيضة من غنم وعصا ؛ وقال له : البس هذه المدرعة ، وخذ هذه العصا وارع هذه الغنم ، أسمعت ؟ قال نعم ، والموت خير من هذا .

وسأل اهل حمص عن اميرهم عبدالله بن قرط فقالوا : خير امير : إلا انه قد بنى علية يكون فيها ؛ فأمر احد رجاله فجمع حطباً واحرق باب علية الأمير .

وكتب الى سعد بن أبي وقاص اميره على الكوفة ، وكان استأذنه في بناء بيت يسكنه : « ابنِ ما يسترك من الشمس ويكفيك من الغيث » .

وكان عمر ينهي عماله عن قبول الرشوة ، ويمنعهم من التجارة . فمن اتّجر قاسمه ماله . ومن عماله الذين صادرهم ، ابو هريرة عامله على البحرين . فقد اخذ منه ما ربحه من التجارة وجعله في بيت المال ، فليس من شأن الامراء ان يشتغلوا بالتجارة ويزاحموا الرعية في عملها ورزقها .

وطلب عمر في زيارته للشام ، ان ترفع اليه اسماء الفقراء ، فرفعت اليه رقعة فوجد فيها اسم سعيد بن عامر اميره على حمص ، وكان أهل حمص قد شكوه الى عمر وقالوا : انه لا يخرج اليهم حتى يتعلى النهار فسأله عمر عن ذلك فقال :

نعم ، فليس لأهلي خادم ، اعجن عجيني حتى يختمر . ثم اخبز خبزي ، ثم أتوضأ ثم اخرج اليهم .

بين عمر وعامل حمص :

واستعمل عمر على حمص « عمر بن سعد » ثم كتب اليه : ان يقدم عليه . فقدم ماشياً ، حافياً ، معه عكازته وادواته (١) ومزوده وقصعته على ظهره ، فعجب عمر من حاله . وقال له يا عمر أخنتنا م البلاد بلاد سوء ؟ فقال : يا امير المؤمنين اما نهاك الله عن سوء الظن وما ترى من سوء الحال وقد جئتك بالدنيا اجرهـــا برقابها ؟

قال عمر : وما معك من الدنيا: قال : عكازي اتوكأ عليها وادفع بها عدواً ، ان لقيته ، ومزودي أحمل فيه طعامي ، وادواتي هذه احمل فيها ماء لشربي وصلاتي ، وقصعتي هذه أتوضأ فيها واغسل رأسي . فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد الا تبعاً لما معي .

ما قرأت مثل هذه الاخبار المنتثرة في زوايا تاريخنا العربي الرائع ، الا وتواثبت في ذهني ، صور من المقارنة بين اولئك الاجداد ، وهؤلاء الاحفاد ، بين ولاة الامس واولياء اليوم ، الذين يعتبرون الخدمة العـــامة وسيلة للاثراء والكسب غير المشروع ، والذين يعتبرون الاموال العامة ، رزقاً مستباحاً يحل لهم أكلها بالباطل ، والذين تستهويهم مظاهر السلطان الزائل فلا ينتقلون إلا بموكب ، ولا يتحركون الا بضجيج يصطفونه حولهم ليضفي عليهم هالة من العظمة ، والأبهـــة الفارغة ، والوقار السخيف .

لقد كانت العدالة عند اجدادنا ، هي الجند الحارس الامين لذي السلطان يحتمي بها ، ويستظل بظلها . اما اليوم ، فالبنادق التي لا تنام ، والجند المدجج الذي لا يستقر ، والاسوار التي لا تقهر ، هي الحرس الذي يحشده الحاكم لحماية نفسه من

---

(١) اناء صغير من جلد يتخذ للماء (المطهرة)

مظالمه . هذه المظالم التي يزرعها في كل مكان فلا يحصدها إلا نقمة وثورة ولعنة في اهون الاحوال .

ديموقراطيتنا وديموقراطيتهم :

لقد ضربت لكم ـ قرائي الاعزاء ـ فيما سبق الامثلة على ديمقراطية الاسلام في كل مجلى من مجالي الحياة ، وسأحاول ان استعرض معكم بعض « العينات » من ديمقراطية الغرب .

لن ارجع بكم القهقرى الى العهود التي كان الغرب يرزح فيها تحت وطأة الجهل والهمجية؛ فستقولون إن الديمقراطية لا يمكن ان تنشأ في كنف الجهل ، ولا يعقل ان تترعرع في ظل الهمجية .

لن احدثكم عن محاكم التفتيش في اسبانية ، وعن تلك المجازر الرهيبة التي اقترفها الوحش الهائج وقضى بها على مئات الالوف من العرب ، لا لذنب الا لانهم حملوا الى الغرب رسالة النور والتهذيب والسمو والتمدين .

ولن احدثكم عن الحروب الصليبية ،تلك الحروب التي التقت فيها نذالة الغرب بنبل الشرق .

لن احدثكم عن ذلك الحقد الوحشي ،الذي دفع بالكتائب العطشى الى الدم ، فانطلقت باسم المسيح ، تدنس مقر المسيح ، وتقوض دعائم المحبة التي اقامها ، وتنشر الدمار في ارض السلام التي اراد لها ان يظلها غصن الزيتون .

لن احدثكم عن كل ذلك ، وانما سأضرب صفحاً عنه ، وانتزع امثلتي من عصور النور ؛ من العصور التي بلغ الغرب فيها ذروة الرقي المادي وهوى فيها مع الاسف ، الى اسفل دركات الانحلال الروحي .

ماذا تفعل فرنسا ؟

يعلم الجميع ان فرنسا ، ما لبثت منذ ثورتهـــا تدل على الدنيا ، بما طلعت عليها من مبادىء قررت حقوق الانسان. فتعالوا نتتبع ديمقراطية فرنسا، أم الحريات.. تعالوا نتفحص سلوكها تجاه الشعوب لنلمس الخدعة الكبرى ، التي اختبأت وراء البرقع الحريري الرائع .

أليس من المضحك حقاً ان ترتفع عقيرة فرنسا مثلا لتردد على مسمع الدنيا ، أسطوانة أمجادها، ولتتغزل بالحريات وكرامة الانسان، ثم تنكفىء لتتكل بالحريات ولتنتهك ـ بكل استخفاف ـ كرامة الانسان .

مجازر الجزائر :

لن أذكركم بفظائعها في سورية ولبنان ، وكلنـــا ما زال يذكر كيف غرست أرضنا مآسي ، وإنما أود ان انقل اليكم شهادة وردت على لسان أديبين فرنسيين معاصرين ، اصدرا مؤخراً كتاباً عن الجزائر سمياه «الجزائر الخارجة على القانون» وقد نشرت مجلة الآداب البيروتية ملخصاً له في عددها الصادر في آذار ١٩٥٦ ، فاستمعوا بالله عليكم الى « كوليت وفرنسيس جونسون» يؤديان امام التاريخ هذه الشهادة ؛ ويعطيان بعض الأمثلة عن بطش فرنسا بالجزائريين فيقولان :

« في مساء السادس من نيسان عام ١٨٣٢ يوجه القائد Rovigo حملة على قبيلة «أليفا» في الجزائر فيذبح جميع اهليها ، دونما تفريق بين شيخ او طفل ، بين امرأة او رجل ، ويحمل الظافرون بعد ذلك رؤوس القتلى على رماحهم » .

« وفي تشرين الاول من عام ١٨٣٦ ترسل الرؤوس كما ترسل الهدايا وتباع الماشية، لقنصل الدنمارك ، ويعرض باقي الغنيمة في سوق باب الزون ، حيث ترى

أساور النساء ، وهي ما تزال في معاصمهن المقطوعة ؛ واقراطهن المتدلية من قطع آذانهن ، ويتوزع الظافرون الصفقة ، ويؤمرسكان مدينة الجزائر بعد ذلك باشعال النار في حوانيتهم ابتهاجاً بهذا الحادث السعيد » .

« ذلك ان الفرنسيين المعتدين ، اخذوا يتذوقون حملات الافناء هذه ، وقد خلق لدى محاربيهم ذوق خاص ، للاستمتاع بفنون التعذيب والتقتيل ، وفرض الغرامات المالية فوق ذلك ، بل خلق لديهم ولوع خاص بالغـــدر والضحك من الوعود والاستهزاء بالعهود والحدود ، فهذه قبيلة تعذب بعد ان اعطيت وعداً بأن تصان ، فيسلب منها أولا مائة الف فرنك ، وتؤخذ أملاكهـــا دون تعويض ، بل يكره بعض المالكين على ان يغادروا منازلهم ، لتخرب بعد ذلك ، وليدفعوا نفقـــات تخريبها ، بل نفقات تخريب الجامع هناك ، وهذه معابد وجوامع وقبور وحرمات تدنس وتنتهك ، وها هم أولاء اتباع الحاكم « Bugeaut » يتغنون عام ١٨٤٢ بالحرائق التي شهدوا نارها الجميلة في قرى : بني مناصر ، وبني سالم ، وبلقاسم »

فظائع مريعة :

ويتابع المؤلفان سرد فظائع فرنسا قائلين « وهكذا يتردّى الفاتحون في مجون الفتح ، فيتلاعبون بالانفس تلاعبهم بصيد ، ويشرون الضحايا كما تشرى طيور البر ، فيدفع ثمن زوج من آذان المواطنين عشرة من الفرنكات ، ويبحثون خاصة عن صيد النساء ، فهو عندهم صيد رفيع كامل يحتفظون ببعضه ، ويساومون على بعضه الآخر مقابل الخيل ، ويبيعون بعضه بالمزاد العلني .

وأجمل بدعهم حرق الجماعات . واليكم وضعاً موجزاً للحريق الذي امر به ، عام ١٨٤٥ ، وأي قـــلم يستطيع وصف ذلك المشهد ، كما يقول أحـــد الجنود الذين وصفوه :

« في قلب الليل وفي ضوء القمر ، ترى فريقاً من المحاربين الفرنسيين مشغولين

بايقاد نار جهنمية ، وتسمع الأنين الاصم من رجال ونساء وأطفال وبهائم ، وتصل اليك اصوات الصخور وهي تتفتت ، وفي الصباح تدخل الكهوف الثلاثة التي أحرقت ؛ فترى في مدخلها الثيران والحمير والخراف ، وبين هذه الحيوانات ، وتحت أرجلها تجد الرجال والنساء والاطفال ، وتشهد بعينيك رجلا ميتاً ركبته على الارض ، ويده ما تزال ممسكة بقرن ثور ، وامامه امرأة تحمل صغيرها على ذراعيها ، وتعد القتلى في هذه المغاور الواسعة ، فتبلغ عدتهم ٧٦٠ جثة » .

شاهد من اهله :

هذه شهادة يؤديها فرنسيان . وقد استقيا معلوماتها عن تقرير لجنة التحقيق التي قامت بأعمالها بين ايلول وتشرين الثاني عام ١٨٣٣ . فلننتقل الى عصر الذرة فماذا نجد ، إن الاساليب نفسها ما تزال تستخدم ، والارهاب الفرنسي في المغرب العربي يعتمد على خطة واضحة يعتبرها أنجع الوسائل للقضاء على روح المقاومة ، ألا وهي الافناء . واليكم قصة تناقلتها الصحف ووكالات الانباء ، في بدء الثورة المغربية الاخيرة .

لقد جمع الفرنسيون جميع سكان احدى المدن الجزائرية ، وصبوا البترول على وجه الماء في المستنقعات القريبة ، ثم امروا الجموع بالتوجه الى هذه المستنقعات و وعندما لاحظوا ترددها فتحوا عليها نار البنادق والمدافع الرشاشة ، فاندفع الناس الى الماء ، يحتمون به من الرصاص ، حتى اذا غصت المستنقعات بالرجال والنساء والاطفال ، أشعل المستعمرون النار فيها ، ولم يكد ينتصف النهار ، حتى كان عدد الذين قضوا بهذه الطريقة ، غرقاً وحرقاً وقتلاً يزيد على السبعين الفاً .

وأي شاهد على ديمقراطية فرنسا ابلغ واصدق ، من هذه الحرب الافنائية ، التي تشنها فرنسا اليوم على الجزائر ... وتحشد لها مئات الالوف من الجند ، وكل ما لديها من قوى الجو والبر والبحر .

ماذا تفعل بريطانيا :

وهناك ايضاً مثالا صغيراً على ديمقراطية بريطانيا ؟

اسألوا ثرى النيل ، وساحات بغداد ، وربوع الهند ، بل اسألوا فلسطين الشهيدة ، اسألوا مليون متشرد عربي ، أرادت لهم ديمقراطية الانكليز ان يموتوا جوعاً وبؤساً وعرياً ارضاء لخفنة من الافاقين وحثالات الشعوب .

اسألوا طبريا وحيفا واللد والرملة ودير ياسين ، اسألوا تاريخ دنيا العرب يأتكم الجواب صريحاً لا غموض فيه ولا ابهام : ان نكبة العرب الكبرى من صنع الانكليز ، فهم اساتذة في فن الخيانة والتدجيل على الشعوب ، والتنكر للعهود والمواثيق وازدراء كلمة الشرف ، مدّ لهم الحسين يد الولاء ، ويمين الوفاء ، فطعنه خنجر غدرهم . وطالبهم فيصل بتحقيق الوعود ، وحرية العرب ، فأودت بهم مؤامراتهم . وأنسوا في غازي انتفاضة الإباء ، فهصروا شبابه الريان . وظلوا يناصبون أمة العرب العداء ، يحبكون لها الدسائس ، كلما جمعت عزمها ، وحاولت أن تنهض من كبوتها ، وان تقف على قدميها .

ماذا تفعل امريكا :

قد يقول قائل وما قولك بديمقراطية الأميركان ، حماة الحريات الأربع ونافحي الانسانية أمثال : واشنطن ولنكولن وسواهما ؟ لن أتعرض لقرائي الاعزاء جواباً على هذا التساؤل ، إلى الدور الانساني اللاديمقراطي ، الذي ما برحت أميركة تلعبه منذ ربع قرن تقريباً والذي مثل فيه الرئيس ترومان فصلا رهيباً .

لن أتعرض الى المجزرة التي أثارتها أميركة في كوريه ، ولن أبين مدى مساهمتها

في نكبة فلسطين . فقد يكون في التعرض الى هذه الامور ، ما يحمل الشك بأنني أعطي الحكم مشوباً بعيب التحيز ومآخذ الانفعال .

ولكني أود أن أبحث ديمقراطية الاميركان، من زاوية أخرى ، وأنا مقتنع تمام الاقتناع بأن المهزلة الكبرى: مهزلة الحريات الاربع . ومبادىء ولسون لم تعد تغني الاميركان شيئاً بعد اليوم .

امثلة من ديموقراطية اميركة :

إن أميركة التي تعتز بحرياتها الاربع . هي اليوم موطن العبودية . . . موطن التمييز العنصري . . . في زمن انهارت فيه كل العبوديات ، بما فيها عبودية الالوان .

واليكم بعض الامثلة :

لا تزال في أميركة بعض المناطق يحرم على الزنوج دخولها . وبعض الاماكن لا يباح لهم ارتيادها ، وقد حرمت قوانين بعض المقاطعات الأميركية على الزنوج أن يركبوا في القطر أو الاوتوبيسات التي يركبها البيض .

ومن منا لم يقرأ مأساة الطالبة الزنجية، المسز «أرثولوسي»، تلك الفتاة المسكينة التي أقامت مشكلتها أميركة ولم تقعدها فترة طويلة من الزمن . لقد دفعها حب العلم والرغبة به الى أن تقصد جامعة تكساس ، وأن تعمل بكل الوسائل على الانتساب اليها ، وقد تمكنت بعد جهد من الوصول الى بغيتها ، ولكنها ما كادت تنجح في ذلك ، حتى اعتبر الاميركيون قبول زنجية في جامعة «أميركية» إهـــانة لا تغتفر لكرامتهم ، وقامت المظاهرات احتجاجا على ذلك ، وانفلت الناس هائجين ، مطالبين بإخراجها من الجامعة، ومعاقبة المسؤولين ، الذين مهدوا لها السبيل وأتاحوا لها الدخول .

ونزلت الجامعة عند ارادة الاميركيين « حماة المدنية» فطردت الطالبة، وعندما

تطوع أحد المحامين للدفاع عنها ، ولتبني قضيتها ، انهالت عليه كتب الاستنكار والاحتجاج ، والتهديد بالقتل إن هو استمر في غيّه ، وفي تدنيس الشرف الاميركي الذي لا يرضى أن يزامل الابيض زنجي .

اللون المجرم :

واليكم ــ قرائي الاعزاء ــ حادثة اخرى بسيطة ... ولكنهـــا قوية الدلالة ، رائعة التعبير نشرتها الصحف مؤخراً ، وهي ان دلت على شيء فإنما تدل على نمط جديد من ديمقراطية الاميركان .

لقد غصت قاعة مسرح «برمنغهام» في إحدى الليالي بالرواد ، وقد جاؤوها للاستماع الى المغني الزنجي المشهور « ناث كول» وما أن صعد المغني خشبة المسرح حتى ثار الاميركيون البيض، الذين كانوا في القاعة ويقدر عددهم بـ ٣٥٠٠ شخصاً ، وتقدم منهم عشرات فهاجموا المغني وانهالوا عليـــه ضرباً ولكماً ، لا لسبب إلا لانه زنجي .

قد يعتقد الكثيرون ان التمييز العنصري غير قانوني في أميركا .

فإليكم هذه الحادثة الثالثة : لقد مرت إحدى الفتيات «الطائشات» فتيات الشارع الاميركي ، وما اكثرهن ، أمام فتى زنجي مراهق ، فانتشى المسكين وراعه الجمال المتبرج المستهتر ، فند من بين شفتيه صفير إعجاب .

أفتدرون ماذا كـــان جزاء الفتى ؟ لقـــد هجم عليـــه شابان اميركيـــان وانهالا عليه طعناً بالمدي حتى لفظ أنفاسه ومات من يومه . الى هنا والامر عادي بالنسبة للأميركان ، ولكن أتدرون ماذا كان جزاء القاتلين ؟

لقد أعلنت المحكمة براءتهما ورفضت حتى تغريمهما بجزاء نقدي ، لا لشيء إلا لان المغدور زنجي تجرش ببيضاء ... ولم يشفع له ان الفتاة لعوب ، وانها من فتيات الطريق ، وانه لم يزد على « ابداء اعجابه بها » .

لا وجود للديموقراطية :

أبعد هذا كله يحق للغرب ، أن يتشدق بالديمقراطية ؟

أهي ديمقراطيـــة حقا ، أن يحارب الغرب الاحرار في كل مكان ، وان يخنق الحرية في كل أرض ؟

اهي ديمقراطية حقاً ، ان يحصد رصاصه الغاشم ، طلاب الانعتاق انى كانوا ؟

اهي ديمقراطية حقاً ، ان تتآمر دول الغرب على كل شعب ضعيف لتتقاسمه تحت سمع هيئة الامم وبصرها وبمعرفتها ؛ وتسرق خيراته باسم الديمقراطية وحماية الحريات ، وتحرير الشعوب

اهي ديمقراطية حقاً ، ان تتساند هذه الدول ، كلما ارادت امة مظلومة من امم الشرق ، ان ترفع الكابوس عن كاهلها ، والنير عن عاتقها ، فاذا ذئاب الغرب لها بالمرصاد ، يخنقون كل انتفاضة ، ويكبتون كل حركة ، ويصعقون كل منـــاد بالتحرر ، او عامل لوحدة الاوطان ؟

انبعاث الديموقراطية العربية :

ليعلم المتشدقون بالديمقراطية ، ان العرب والمسلمين ، قد استفاقوا اليوم ، على الحقيقة الرهيبة والواقع المرّ ، وانهم باتوا يدركون ماذا تعني هذه الكلمة ، حـــين يتغنى بها الغرب ، ويترنم باسمها . انهم يعرفون انها المصيدة ، التي ينصبها العدو الماكر ؛ للطريدة الساذجة . ولم نعد والحمـــد لله سذجاً يسهل إيقاعنا في الشراك وحبائل المصائد .

ان الديمقراطية التي نؤمن بها ، ونعمل لها ، هي ديمقراطية الاسلام ، الاسلام الذي أعطى امثال الخلفاء الراشدين وسواهم من الابطال الذين اسهموا في تقدم الانسانية ، ورفاه البشرية ، وملأوا الدنيا عدالة ومحبة ، واخوة ومساواة ، ونشروا في الارض الطمأنينة ، والحق والسلام .